لسنا في زمان أبرهة

الدكتور راغب السرجاني

إن الحمد لله.. نحمده ونستعينه, ونستغفره ونستهديه, ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.. إنه من يهد الله فلا مضل له, ومن يضلل فلا هادي له.. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له.. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا..

أما بعد..

فقصة أبرهة معروفة لدى كل الناس.. إنه أبرهة الأشرم الذي جاء بجده وحديده من اليمن ليهدم الكعبة كما يعرف الجميع...

وهو في طريقه إلى مكة استطاع أن يغنم بعض الإبل من أهل مكة، مائتين من الإبل أخذها ثم بدأ يستعد لدخول مكة...

وقبل أن يدخل مكة قابل عبد المطلب جدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم, وكان سيد مكة في ذلك الوقت, وكان قد خرج ليفاوض أبرهة قبل أن يدخل إلى مكة, فلما رأى أبرهةُ عبدَ المطلب أجلّه وعظّمه وأكرمه, وأجلسه إلى جواره وكانت عليه هيبة.. وسأله أبرهة قائلاً: ما حاجتك؟ فقال

عبد المطلب: حاجتي أن يردّ عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي!!..
لقد ظن أبرهة أن عبد المطلب سيسأل عن البيت.
فقال له أبرهة: قد كنتَ أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدْتُ فيك حين كلمتني!
واستصغر أبرهةُ عبدَ المطلب في نظره لأنه يتحدث في مائتي بعير ويترك بيت الله الحرام!!
قال أبرهة: أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟!
فقال عبد المطلب كلمةً يعتقد البعض أنها جميلة تدل على اليقين.. قال: "إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه"!..
وهذا الموقف الذي وقفه عبد المطلب من أبرهة موقف فيه سلبية مقيتة..
أيعيش الإنسان يبحث عن لقمة عيشه, وعن حياته, وعن أولاده, وعن إبله, وعن ملذاته, ويترك دين الله عز وجل.. لله يحميه؟!
الحق أن من اعتقد هذا فلا بد أنه يعاني من قصور شديد في الفهم.. وانعدام للرؤية..
ومع ذلك.. وبعد هذا الموقف السلبي من أهل مكة.. وبعد تفرُّق أهل مكة في شعاب الجبال.. وبعدما أخلوا مكة لأبرهة ليدخلها بجيوشه وبفيله... بعد هذا الموقف السلبي نزلت الطير الأبابيل!! نزلت المعجزة الكبرى.. طيور صغيرة ترمي بحجارة من سجيل.. أهلكت جيش أبرهة ومن معه..
لماذا نزلت الطيور الأبابيل؟ لماذا نزلت على قوم سلبيين؟
لأن هذه كانت سنة الله عز وجل في إهلاك الظالمين.. كانت هذه هي السنة الماضية في إهلاك الظالمين قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم..
كان الله عز وجل يهلك الظالمين بخارقة.. والمؤمنون لا يرفعون سيفاً ولا يشتبكون في قتال.
ولما أحاط هذا الخطر ببيت الله الحرام طُبِّقت السنة حتى في غياب المؤمنين.
لقد كان هذا يحدث أيضاً مع الأنبياء السابقين قبل النبي صلى الله عليه وسلم
نوح عليه السلام:.
لما كذبه قومه، وشعر أنه لا أمل في إيمانهم.. وقف يدعو الله عز وجل كما صورت آيات القرآن الكريم: "فدعا ربه أني مغلوب فانتصر".. فاستجاب الله لدعائه وقال: "ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجّرنا الأرض عيوناً.. فالتقى الماء على أمر قد قدر، وحملناه على ذات ألواح ودسر.."
لم يحدث لقاء بين المؤمنين وبين الكافرين، وإنما حدث الطوفان، وحمل الله المؤمنين في السفينة بهذه

الخارقة.

لوط عليه السلام :ـــ

لما كذبه قومه قال: "رب نجني وأهلي مما يعملون"..

فجاءت الأوامر من الله عز وجل: "فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم.. ولا يلتفت منكم أحد.. وامضوا حيث تؤمرون"..

لم يكن هناك أي نوع من أنواع اللقاء.. ثم يوضح سبحانه بعد ذلك ما حدث للقرية الظالمة بعد أن خرج منها لوط عليه السلام: "فجعلنا عاليها سافلها, وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل"..

حتى مع بني إسرائيل :ـــ

الذين حمّلهم الله أمانة إقامة دولة وإنشاء أمة.. لما أحيط بهم في أرض مصر، وانقطع أمل موسى عليه السلام في إيمان فرعون وقومه قال موسى عليه السلام كما حكى القرآن على لسانه: "ربنا اطمس على أموالهم، واشدد على قلوبهم؛ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم"..

فجاء الأمر الإلهي: "فأسر بعبادي ليلاً.. إنكم متَّبعون"... ولم يحدث لقاء بين قوم موسى عليه السلام وبين فرعون، ولم يؤمر قوم موسى بقتال فرعون وجنوده، وإنما أمروا فقط بالخروج من مصر إلى غيرها، وانطلق موسى عليه السلام ومن معه من بني اسرائيل حتى وصلوا إلى البحر ولما وصلوا إلى هناك فقد بنو إسرائيل الأمل في النجاة؛ لأنهم رأوا جيوش فرعون من ورائهم.. وصوَّر الله تعالى الموقف في كتابه الكريم: "فلما ترائى الجمعان قال أصحاب موسى: إنا لمدركون!! قال: كلا.. إن معي ربي سيهدين".. فكانت تلك هي الكلمة الوحيدة المؤمنة التي قيلت في مثل هذا الموقف.. كلمة موسى عليه السلام: "كلا.. إن معي ربي سيهدين".. أما بقية القوم فإنهم اضطربوا اضطراباً شديداً لما رأوا جيش فرعون، ومع ذلك قال الله عز وجل: "فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر.. فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم.. وأزلفنا ثَمَّ الآخرين، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين"..

ولم يكن هناك ضحايا ولا شهداء.. نجا كل بني إسرائيل مع كونهم قالوا: "إنا لمدركون"!!

وقال الله تعالى: "ثم أغرقنا الآخرين".. فأُهلك فرعون الظالم بخارقة!.. شق الله البحر, وأهلك فرعون عليه لعنة الله ومن معه من الجنود.

كان هذا شأن السنة الإلهية في التعامل مع أعداء الحق ومع الجبابرة الظالمين في كل العصور السابقة وحتى زمان أبرهة كما رأينا..

لكن الله تعالى شرّع سنة جديدة في الطريقة التي يُهلَك بها الظالمون بعد خمسين يوماً فقط من قصة أبرهة.. وذلك بميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم.. كانت حادثة الفيل هي آخر الحوادث التي يُنصر فيها الدين بخارقة..

نعم ما زالت سنة إهلاك الظالمين باقية..

"وقال الذين كفروا لرسلهم لنُخْرِجَنَّكُمْ من أرضنا.. أو لتعودُنَّ في ملتنا.. فأوحى إليهم ربهم: لنُهْلِكَنَّ الظالمين، ولنُسْكِنَنَّكُمُ الأرض من بعدهم.. ذلك لما خاف مقامي وخاف وعيد"

أي أمة تخاف مقام الله عز وجل, وتخاف وعيده سبحانه.. لابد أن تُمَكَّنَ في النهاية, ولابد أن يُهلك الظالمون المحاربون لها..

سنة ماضية إلى يوم القيامة..

ـــ ولكن الذي تغيَّر مع ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو طريقة الإهلاك..

كان الظالمون في السابق يُهلكون بالخوارق..

أما في الرسالة الجديدة رسالة الإسلام فالسنة هي:

"إن تنصروا الله ينصركم، ويثبت أقدامكم.."

ـــ لابد أن يقدم المسلمون العمل.. الخالص لله عز وجل.. والصحيح على منهاج النبوة..

فإذا قدم المسلمون العمل أنزل الله عز وجل ما يشبه الطير الأبابيل..

أنزل بركة ورحمة وأمناً وتأييداً وتوفيقاً على المؤمنين..

أنزل سخطاً ونقمة وعذاباً على الكافرين..

لكن بغير عمل.. لن تنزل الطير الأبابيل..

وبغير جهد وبذل وعطاء.. لن تُرمى حجارة من سجيل..

إنها السنة الجديدة الخاصة بأمة الإسلام..

وهي سنة ماضية إلى يوم القيامة.. لا تبديل لها ولا تحويل..

"إن تنصروا الله ينصركم، ويثبت أقدامكم.."

كثير من الناس يُحبَطون من رؤية الظالمين يتمكنون من رقاب المؤمنين, ويتعلقون بأهداب أمل بعيد أو مستحيل أن تنزل الطير الأبابيل على الكافرين فتهلكهم، بينما يراقب المسلمون الموقف عن بعد!!..

هذا وهم.. هذا غياب فهم.. هذا عدم فقه لسنة الله عز وجل في التغيير..

لابد أن يعتمد المسلمون على أنفسهم، وعلى سواعدهم، وعلى شرعهم ومنهجهم..

لابد أن يعتمد المسلمون على "ربهم".

والاعتماد على الله لا يكون إلا كما يريد هو سبحانه، لا كما نريد نحن بأهوائنا..

الله عز وجل وضع لنا سننًا واضحة في التغيير، قد تختلف حسب المرحلة التي يعيشها المسلمون..

قد يكتفي المسلمون في زمن بالدعوة.. وقد تكون هذه الدعوة سراً, وقد تكون جهراً..

قد يحتاج المسلمون إلى معاهدة، وقد يحتاجون إلى جهاد..

قد يجاهدون قوماً, ويتركون آخرين..

وقد يجاهدون الكفار أجمعين..

وبحسب المرحلة تتغير الطريقة..

ولكن في كل الأحوال لابد أن يُقدِّم المسلمون شيئاً..

لا يترل النصر على قوم كسالى..

لا يترل على قوم قاعدين..

لا يترل على قوم سلبيين..

لذلك لا يعجبني الدعاء الذي يدعو به بعض الناس..

"اللهم أهلك الظالمين بالظالمين، وأخرجنا من بينهم سالمين.."!!

وأين دورك إذن ؟!

أتكتفي بالمراقبة.. ثم تسوقك الأحداث سَوقاً إلى سيادة وتمكين وعزٍّ وصدارة؟

هذا وهم.. هذا ليس من سنن الله عز وجل..

إنما السنّة: "إن تنصروا الله ينصركم، ويثبت أقدامكم"..

وتذكروا: نحن لسنا في زمان أبرهة..

ولن تترل الطير الأبابيل بعد ذلك على الظالمين إذا فرّ من أمامهم الصالحون في رءوس الجبال..

نحن الآن نشاهد الصواريخ والطائرات والدبابات والبوارج الأمريكية تعربد في كل بلاد المسلمين.. والمسلمون ينظرون بحسرة لمن جاء يدمر بلادهم وأوطانهم.. ويقتِّل أبناءهم وشيوخهم ونساءهم.. وهم كما يظن البعض لا يملكون شيئاً.. فيقولون: عسى الله أن يرسل طيراً أبابيل.. أو يرمي بحجارة من سجيل..

عسى الله أن يُحدث معجزة..

عسى الله أن يأتي بخارقة..

إلى هؤلاء الذين يعتقدون مثل هذا الاعتقاد.. أوجه نداءً من قلبي..

إلى أولئك الذين ينتظرون الصواعق أن تنزل على قاصفات أمريكا..

وإلى أولئك الذين ينتظرون خسفاً بجنود الأمريكان في الكويت والسعودية والعراق وقطر وعُمان وتركيا وباكستان وأفغانستان وأوزبكستان وغيرها... وإلى أولئك الذين ينتظرون طوفاناً يغرق أساطيل الأمريكان في الخليج العربي والبحر الأبيض والأحمر، والأسود والأصفر... وكل ألوان الدنيا ..

إلى هؤلاء جميعاً أقول: سيطول انتظاركم!!..

لن تنزل الطير الأبابيل أو أشباهها إلا بعمل..

سنة واضحة.. "إن تنصروا الله ينصركم، ويثبت أقدامكم"..

إخواني في الله..

نحن لسنا أعز على الله عز وجل من نبيه محمد صلى الله عليه وسلم..

لقد مضت معه هذه السنّة في كل حياته..

في غزوة بدر

وقف أبشع أجيال الكافرين يتزعمهم فرعون هذه الأمة.. يقاتلون خير أجيال الأرض.. يقودهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك لم تنزل الطير الأبابيل على جيش الكافرين لتمنع اللقاء بينهم وبين المؤمنين..

بل على العكس..

كل الملابسات كانت تدفع دفعاً إلى القتال.. حتى على غير رغبة الطرفين!!

قال الله عز وجل: "ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد.. ولكن ليقضي أمراً كان مفعولاً".

ويقول في موضع آخر: "وإذ يريكُمُوهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً, ويقلِّلُكم في أعينهم؛ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.."

كان لابد من اللقاء.. ولم تنزل الطير الأبابيل قبل اللقاء..

مع أن جيش المؤمنين أكرم على الله عز وجل ألفَ ألفِ مرة من أهل مكة حين غزاها أبرهة..

لكنها سنّةٌ جديدة تستقر..

"إن تنصروا الله ينصركم، ويثبت أقدامكم"..

ـــ لا بد من اختيار المكان..

ـــ لا بد من الشورى الحقيقية..

ـــ لا بد من تنظيم الصفوف..

ـــ لا بد من التأليف بين القلوب..

ـــ لا بد من حمل السيوف..

ـــ لا بد من خطة محكمة..

ـــ لا بد من دعاء مستفيض..

ـــ لا بد من ثبات راسخ..

ـــ لا بد من جراح.. وآلام.. ودماء.. وشهداء..

وعندها ستتزل الطير الأبابيل..

تتزل في صورة ملائكة.. في صورة مطر.. في صورة رعب يُلقى في قلوب الكافرين.. في صورة فُرقة وتشتُّت في صفوف أعداء الدين... في أي صورة يختارها الله رب العالمين..

لكن المهم: لابد من عمل.. لابد من حركة.. لابد من إيجابية..

<u>وفي غزوة الأحزاب :</u>

كان جيّش الكافرين عشرة آلاف يحاصرون خير الأنبياء وخير الأصحاب..

الإسلام مهدد بالاستئصال..

الحق الكامل في داخل المدينة.. والباطل الكامل حولها..

ولم تتزل الطير الأبابيل على جيش الكافرين..

ولم يحدث لهم خسف ولا صاعقة ولا صيحة ولا طوفان..

السنَّة واضحة..

"إن تنصروا الله ينصركم, ويثبّت أقدامكم"..

ـــ لا بد من اليقين بالنصر..

ـــ لا بد من الوحدة بين المؤمنين..

ـــ لا بد من الخطة المناسبة..

ـــ لا بد من حفر الخندق..

ـــ لا بد من الصبر على الجوع..

ـــ لا بد من عقد الأحلاف..

ـــ لا بد من فك الرباط بين صفوف المشركين واليهود..

ـــ لا بد من حسن المبارزة..

ـــ لا بد من قوة المخابرات..

كل ذلك جنباً إلى جنب مع العقيدة السليمة والعبادة الصحيحة..

وعندما يحدث كل ذلك.. يترل نصر الله على عباده الثابتين..

وتترل الطير الأبابيل أو أشباهها..

تترل في صورة ريح.. في صورة فُرقة بين المشركين واليهود.. في صورة رعب.. في صورة رأي سديد...

المهم.. لابد من عمل.. وعمل دءوب.. عمل صالح.. عمل مخلص لله عز وجل..

وعلى الجانب الآخر...

في غزوة أحد

هُزم المسلمون الأكرمون من الكافرين الملحدين لما خالفوا المنهج..

وخاطب الله عز وجل رسوله والمؤمنين.. قال تعالى: " أولما أصابتكم مصيبة.. قد أصبتم مثيلها قلتم: أنَّى هذا؟!.."

لقد انتصرتم قبل ذلك في بدر.. والآن تقولون بعد الهزيمة: أنى هذا؟! يتعجب المسلمون لماذا أصيبوا بهذه الهزيمة من المشركين.. ويأتي رد الله تعالى واضحًا: "قل: هو من عند أنفسكم، إن الله على كل شيء قدير.."

المسلمون في غزوة أحد لم يخالفوا مخالفة تكتيكية فقط عندما ترك الرماة الجبل..

لقد خالفوا مخالفة قلبية خطيرة: ".. منكم من يريد الدنيا!!"..

ولم تترل الطير الأبابيل على المسلمين لتنقذهم من أخطائهم..

لأن السنة المستقرة التي وضعها الله لهذه الأمة هي:

" إن تنصروا الله ينصركم, ويثبت أقدامكم.."

وتذكروا دائماً: نحن لسنا في زمان أبرهة.. نحن في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم..

وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وسنة الله التي شرعها لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم..

ما العمل؟؟!

والآن ما العمل مع هذا الوضع الذي تعيشه أمة الإسلام في هذه الأيام ؟

ما العمل مع المأساة التي تمر بها العراق؟ ومع المصائب التي تعاني منها فلسطين؟ ومع الكوارث التي تتوالى على الشيشان؟؟

ما العمل مع الظلم الذي يقع على المسلمين في كشمير وفي البوسنة وفي كوسوفو وفي الفلبين وفي بورما وفي أفغانستان وفي السودان وفي ليبيا وفي غيرها من بلاد المسلمين...؟؟

إنها ليست مشكلة دولة.. أو مشكلة مجتمع.. أو مشكلة فرد..

إنها مشكلة أمة كاملة..

أمة عاشت سنوات تقود غيرها فإذا بها تقاد!!..

أمة رفعت رأسها قروناً فإذا هي تطأطئ رأسها للشرق والغرب!!..

أمة ظلت دهراً تعلم الناس الخير وتضرب للناس الأمثال في الأخلاق، وتأخذ بأيديهم إلى طريق الله عز وجل.. فإذا بها بعد أن عَرَفت طريق الهدى وعَرَّفت به.. إذا بها تتبع هذا وذاك..

مشكلة خطيرة..

وأنا لست مع أنصاف الحلول ..

ولست مع تمييع القضايا..

ولست مع العلاج المؤقت..

نحن لا نريد تفريغاً للشحنات..

لا نريد مهبِّطات للحرارة دون علاج الأسباب الحقيقية للمرض..

لا نريد شعارات جوفاء ولا أصواتًا عالية ولا تشنُّجات مفتعلة..

لا نريد تعليق أخطائنا ومشاكلنا وهمومنا على شماعة حاكم أو عالم أو داعية أو جماعة أو صديق أو عدو..

نحن نريد فقهاً عميقاً لأسباب المرض.. وعلاجاً شرعياً لها..

والمشكلة في اعتقادي مشكلة فكرية في المقام الأول..

هي مشكلة سوء فهم خطير لكثير من الأصول الثوابت في الإسلام..

سوء فهم انتشر في أبناء الأمة من أقصاها إلى أقصاها.. إلا من رحم الله عز وجل..

والحل إذن في العودة إلى فهم الإسلام من مصادره الأصيلة..

في قضية العراق مثلاً:

تجد أطروحات كهذه:

ـــ نجد من يقول: إن على صدام حسين أن يتنحى..

ـــ وآخر يقول: على الدول العربية أن تسير في الطرق السلمية مهما تفاقم الأمر..

ـــ وهناك من يقول: على الأمم المتحدة أن تتحرك..

ـــ والبعض يقول: إن على الأمريكان أن يُنهوا حل المشكلة بسرعة..

ـــ ورأي آخر يرى أنه يجب على العراق أن يدمر كل أسلحته..

ـــ ومنهم من يقول: على المسلمين أن يستنفروا الصين وألمانيا وفرنسا وروسيا للوقوف أمام أمريكا..

ـــ وفريق يريد درعاً بشرياً في العراق...

أهذه أطروحات كان سيضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان يتابع معنا الموقف في العراق؟

نحن نريد توحيد المفاهيم على أساس شرع الله عز وجل..

ونريد حركة بهذه المفاهيم وسط أبنائنا وأحبابنا وجيراننا ومجتمعاتنا..

ونريد عملاً بكل مفهومٍ علمنا أنه في دين الله عز وجل..

مفاهيم تحتاجها الأمةُ:

سأطرح هنا بعض المفاهيم التي أشعر أن الأمة في احتياج لها..

أخاطب بها كل مسلم.. حاكماً كان أو محكوماً.. عربياً كان أو أعجمياً.. قريباً كان أو بعيداً..

يعيش في بلد محتل.. أو يعيش في بلد حر...

كل مسلم.. وأي مسلم.. رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً..

المفهوم الأول :ـــ

ـــ ما بدأنا به حديثنا.. أننا لسنا في زمان أبرهة.. فهناك قانون للنصر وضعه الله عز وجل للمسلمين هو قوله: "إن تنصروا الله ينصركم، ويثبت أقدامكم".. ونصر الله يكون بتطبيق شرعه.

وقد يقول البعض: إن هذه مسؤولية الحاكم..

ولكن تطبيق الشرع يكون على ثلاث مستويات تشمل الفرد والمجتمع والحاكم كل له دوره في تطبيق

شرع الله..

*المستوى الأول.. فردي:

ـــ فعل الطاعات واجتناب المحرمات تطبيق للشرع..

ـــ الصلاة والصيام والزكاة والحج تطبيق للشرع..

ـــ عدم التعامل بالربا مثلاً تطبيق للشرع..

ـــ الحجاب تطبيق للشرع..

ـــ بر الوالدين ورعاية الجار وحفظ حقوق الطريق تطبيق للشرع...

هناك أمور كثيرة من أمور الشرع يقع تطبيقها على الفرد لا على الحاكم.

*المستوى الثاني.. المجتمع:

"كلكم راع.. وكلكم مسئول عن رعيته"..

ـــ تستطيع أن تطبق الشرع في بيتك..

ـــ تستطيع أن تطبق الشرع مع تلامذتك إن كنت مدرساً..

مع موظفي العمل إن كنت رئيساً..

مع زبائنك إن كنت تاجراً..

أمور كثيرة في المجتمع نستطيع أن نطبق فيها الشرع دون حاكم..

أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، محاربة للفساد.. محاربة للرشوة.. محاربة للوساطة على قدر ما تستطيع ..

*المستوى الثالث..الحاكم :

هناك أمور تستلزم وجود حاكم حتى تُطبَّق.. مثل إقامة الحدود، وتسيير الجيوش للجهاد، ورفع الضرائب والمكوس.. ومنع الخمور, وإغلاق ملاهي الرقص والفجور، ووقف الموالاة مع أعداء الأمة, والاكتفاء بموالاة المؤمنين..

فإذا كان المسلمون لا يطبقون الشرع على أنفسهم في الإطار الذي يستطيعونه فكيف يتوقعون أن يهبهم الله نصراً ؟

هذا عكس السنة الإلهية.. والسنة الإلهية لا تبديل لها ولا تحويل..

"إن تنصروا الله ينصركم, ويثبِّت أقدامكم"..

المفهوم الثاني:

إن أمة الإسلام أمة لا تموت ولن تموت..

وهو مفهوم في غاية الأهمية.. فلو أُحبط الناس فلا أمل في القيام.. لابد أن يتيقن المسلمون أن الدولة الأخيرة ستكون دائماً لأمة الإسلام.. وأن هذه الأمة لا تموت.. وهي باقية ما بقيت الأرض.. وأن الله عز وجل قال: "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً".. وليس هناك رسول بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ومن ثم.. فلابد أن تبقى الأمة التي تحمل الرسالة الأخيرة من الله عز وجل إلى خلقه.. وإلا فمن يقيم حجة الله عز وجل على خلقه؟.. ومن يأخذ بأيدي الناس إلى خالقهم؟.. ومن يعلم الناس الهدف من حياتهم؟.. ومن يبَصِّر الناس كيف يعبدون ربهم؟.. ومن يهدي الناس إلى عمارة الأرض وإقامة الشرع ورفع المظالم ورد الحقوق وإرساء العدل ونشر الرحمة؟؟.. من يفعل كل هذا إن فنيت أمة الإسلام؟

إن بقاء أمة الإسلام أمر حتمي.. تواترت عليه الأدلة من الكتاب والسنة.. لابد أن يفقه المسلمون ذلك..

ولكن احذروا شيئاً في غاية الخطورة..

احذروا قاعدة الاستبدال..

فإن الله عز وجل وإن كان من سنته أن يُهْلك القرى الظالمة من غير أمة الإسلام بكاملها.. فإنه مع أمة الإسلام يُمضي قانوناً خاصاً.. وهو قانون الاستبدال.. فيهلك جيلاً فاسداً من المسلمين, وينشئ جيلاً صالحاً مكانه.. يستبدل بجيل ألِف القعود.. جيلاً اشتاق إلى الجهاد والحركة والبذل والعطاء.. سنة إلهية ماضية:

"يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟! فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل، إلا تنفروا يعذبْكم عذاباً أليماً، ويستبدل قوماً غيركم، ولا تضروه شيئاً، والله على كل شيء قدير" ويقول عز وجل في موضع آخر.. في سورة محمد:

"وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم.. ثم لا يكونوا أمثالكم".

فاحذروا قاعدة الاستبدال..

المفهوم الثالث :ـــ

إن الأمم الظالمة المعادية للمؤمنين أمم هالكة لا محالة..

وهي سنَّة إلهية أيضاً:" أولم يروا كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم، إن في ذلك لآيات.. أفلا يسمعون؟"

وأمة الأمريكان أمة هالكة لا محالة إن ظلَّت على طريقها وعلى منهاجها..

لأنها قد استجمعت أسباب الهلكة التي جاءت في كتاب الله عز وجل.. في سياق عرض القرآن لقصص هلاك الأمم الظالمة.. فقد اتصفت هذه الأمة بالكبر والظلم والترف، وغرقت في الذنوب, وأصيبت بالبطر وبالعنصرية... وهي صفات لا تقوم مع وجودها الأمم..

وهو مفهوم لابد أن يفقهه كل المسلمين..

والأصل الإسلامي الثابت الذي يجب أن نستوعبه هو:

"لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد.."

المفهوم الرابع :

الفشل قرين التنازع، والنصر لا يترل على شراذم ولا على المتفرقين.. فالله يقول: "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إن الله مع الصابرين"..

"ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً"..

"واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا"

"ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات"..

وهذا ليس على مستوى البلاد الإسلامية فقط، بل على مستوى الشعوب..

إذا كان المسلمون في مبنى سكني واحد لا يستطيعون أن يتحدوا لإصلاح شئونهم.. فكيف يرجى توحيد بلاد المسلمين؟!..

إذا كان المسلمون لا يشعرون بروح الفريق في العمل وفي الشارع وفي النادي وفي المصلحة بل وأحياناً في المسجد.. !!

أحياناً يتصارع الملتزمون من المسلمين على إمامة مسجد! فكيف لو كان التصارع على إمامة أمة؟!! إذا كان هذا يحدث فكيف تتجمع أمة المسلمين وكيف يترل النصر؟؟..

إخواني وأخواتي في الله..

– "عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة.. فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد".

– "من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة..".

– "لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً.. لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث..".

– "إياكم والحسد.. فإن الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب..".

– "إياكم والظن.. فإن الظن أكذب الحديث".

– "إياكم وسوء ذات البين.. فإنها الحالقة..".

– "إياكم والظلم.. فإن الظلم ظلمات يوم القيامة..".

– "المسلم أخو المسلم.. لا يظلمه، ولا يُسلِمه".

– "المسلم أخو المسلم.. لا يخذله، ولا يَحقِره".

– "بحسب امرئٍ من الشر أن يحقِر أخاه المسلم".

– "كل المسلم على المسلم حرام: دمه, وعرضه, وماله".

– "من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته..".

المفهوم الخامس :

ما حك جلدك مثلُ ظفرك.. فتولَّ أنت جميعَ أمرك

لابد أن يفهم المسلمون أن النصر لا يستورد من خارج البلاد..

النصر ــ إخواني في الله ــ بضاعة محلية.. لا يصلح أن يكتب عليها: صنع في الصين, أو صنع في فرنسا, أو صنع في أمريكا... ولكن لابد أن يكتب عليها بوضوح: "صنع في بلاد المسلمين.. صنع في أمة الإسلام"..

النصر لا يُستورد

شكراً لفرنسا لوقفتها بجوار إخواننا المسلمين في العراق!..

ــ ولكن اعلموا جيداً أن فرنسا ما فعلت ذلك من أجل سواد عيون أهل العراق، وإنما للحفاظ على الوجود الفرنسي في مواجهة الغول الأمريكي المفترس..

ــ ولا تنسوا ما فعلته فرنسا في الجزائر وتونس والمغرب وسوريا ولبنان.. وقبل ذلك في مصر.

ــ ولا تنسوا أن فرنسا كان لها اليد الطولى – وما زالت لها تلك اليد – في الفتنة الدائرة في بلاد

الجزائر الآن.. لا تنسوا أنها من المشعلين لفتنة الحرب بين العرب والبربر في الجزائر.. ولا تنسوا منع فتاتين مسلمتين من لبس الحجاب في المدارس الفرنسية... ولكن كلٌّ يبحث عن مصالحه..

ـــ نعم قد نستفيد من تحالف وتعاون.. ولكن لا ننتظر نصراً مستورداً فرنسياً خالصاً..

شكراً أيضاً لروسيا على وقفتها الشجاعة مع أهل العراق!!..

ولكن أرجوكم.. لا تنسوا إخوانكم في الشيشان.. لا تنسوا ما حدث منذ سنوات في أفغانستان..

وراقبوا باهتمام ما سيحدث عما قريب في داغستان المسلمة!..

شكراً كذلك للأمم المتحدة..

ولكن.. لا تنسوا ما فعلته الأمم المتحدة بفلسطين.. لا تنسوا قرار التقسيم الظالم الذي قسم فلسطين إلى قسمين: عربي وإسرائيلي في عام 1947, ولا تنسوا التخاذل والتهاون والغش والخداع.. لا تنسوا الكيل بمكيالين، والعفو عن الظالمين، وعقاب المظلومين..

كما لا يصح أن نستعطف البابا لإنقاذ أهل العراق.. وقد علمنا أن أهل العراق من المسلمين يمثلون ستة وتسعين بالمائة من السكان.. ولا يقبل شرعًا ولا عقلاً أن ينصر البابا النصراني العراق المسلمة على أمريكا النصرانية.

إخواني في الله..

النصر بضاعة محلية .. ولا يصح أن يستورد من الخارج..

وتذكَّر:

ما حك جلدك مثل ظفرك   فتول أنت جميع أمرك

المفهوم السادس :

"كما تكونوا.. يُوَلَّ عليكم"

لا تنشغلوا كثيراً بالحديث عن الحكام.. لا تنشغلوا بإلقاء التبعة على أكتافهم وتنسوا أنفسكم..

نعم.. كلما عظمت المسئولية زادت التبعات.. والمخطئ في حق فرد ليس كالمخطئ في حق عشرة.. ليس كالمخطئ في حق أمّة!.. ولكن اذكروا الحقيقة الصادقة: "كما تكونوا يولّ عليكم".

إن الحكام إفراز طبيعي جداً للشعوب.. وليس من سنة الله عز وجل أن يولي حاكماً فاسداً على قوم مصلحين، أو أن يولي حاكماً مصلحاً على قوم فاسدين.. لقد قال عز وجل في كتابه وهو يصف فرعون: "فاستخف قومه فأطاعوه؛ إنهم كانوا قوماً فاسقين.."

ولم يقل: إنه كان من الفاسقين.. فالعلاقة بين الشعب الحاكم تفاعلية جداً..
ولو أصلحتم أنفسكم لخرج من بينكم خالد والمثنى وطارق وقطز وصلاح...

المفهوم السابع :

المخطط الأمريكي في بلاد المسلمين مخطط مسبق..

ليس بسبب شخص معين كصدام حسين أو الملا عمر.. ولا بسبب أسلحة تدمير شامل أو غيرها..
إن نزول أمريكا في منطقة العراق مخطط قديم ومسبق.. وكذلك نزولها في منطقة أفغانستان والقوقاز مخطط قديم أيضاً ومسبق..
كل ما في الأمر هو اتخاذ بعض الذرائع لتجميل الصورة وإرضاء الحلفاء وإسكات الشعوب.
وقد يحدث أحياناً أن تجدَّ ظروف تقدم خطةً وتؤخر أخرى..
لكن كل المخططات معدة مسبقًا.. وإعادة تنظيم وترتيب العالم الإسلامي وفق هوىً أمريكي معين أمر لا يخفي على أحد..
ـــ ومن ثم لن يجدي تقديم التنازلات المهينة..
ـــ لن يجدي النداء الذي وجهه رئيس جريدة قومية مشهورة: أما آن لصدام أن يتنحى؟؟..
ـــ لن يجدي إرسال الرسل لأمريكا لاستعطافها أن تكف أيديها عن الدماء المسلمة.. أو على الأقل.. أن تنهي مهمتها بسرعة!!..
إن استعطاف أمريكا كالذي يستعطف ذئباً أن يرعى أغنامه.. سواءً بسواء!

المفهوم الثامن :

أمة الإسلام تملك الكثير..

لا يعتقدنَّ أحد أن أمة الإسلام أمة عاجزة..
ليس من المقبول شرعاً أو عقلاً أن تقف دولة فقيرة معدمة مثل كوريا الشمالية هذه الوقفة أمام أمريكا ولا تستطيع أمة الإسلام أن تقفها..
ما هي إمكانيات كوريا الشمالية مقارنة بأمة الإسلام؟:
30 مليون مواطن شيوعي ملحد.. أمّا أمة الإسلام فمليار وثلث مليار مسلم..
مساحة كوريا الشمالية 120 ألف كيلو متر مربع فقط!! أي عُشر مساحة مصر.. أي ما يساوي

ثلاث محافظات!!..

هناك 6.4 مليون مواطن كوري مهدد بالموت جوعاً.. الشعب الكوري الشمالي في فقر معدم..
يعيشون على الطحالب وعلى الأعشاب!

أما إذا تحدثت عن أمة الإسلام.. فأنت تتحدث عن إمكانيات هائلة:

إمكانيات اقتصادية وبشرية وعقلية وجغرافية واستراتيجية.. وفوق ذلك إمكانيات عقائدية ليست لغيرها من الأمم: "الله مولانا ولا مولى لهم"..

كيف يستطيع أهل كوريا أن يصنعوا سلاحاً ولا نستطيع نحن؟!..

كيف لا يقبل أهل كوريا خفض رءوسهم.. وتقبل أمة المليار أن تخفض رأسها؟..

المسألة مسألة روح.. مسألة إرادة وعزيمة..

ماذا في أيدي الشعوب المسلمة؟..

1ـــ الرأي العام المحلي والعالمي (عبر مراسلة الصحف ـــ الإنترنت ـــ المحمول ـــ ندوات ـــ صالونات ثقافية ـــ الحديث مع الأهل والأصدقاء والجيران ـــ المظاهرات السلمية بالضوابط الشرعية...)

اشرح وجهة نظر الإسلام في كل هذه المتغيرات.. علِّم من تستطيع.. اخلق جواً عاماً من الاعتزاز بهذا الدين.. ومن الأمل في القيام.. ومن الرغبة في الجهاد.. ومن الشوق إلى الشهادة..

وسيؤتي كل هذا إن شاء الله ثماراً عظيمة.. سيولِّد حمية في قلوب المسلمين.. وسيقذف رعباً في قلوب أعداء الدين..

2ـــ المقاطعة لكل ما هو يهودي أو أمريكي أو إنجليزي..

فقد أصبح واضحاً جداً أن الشراء منهم هو أثم وذنب وخطيئة.. لم يعد من المقبول أبداً تحت أي مبرر أن نتعامل بالبيع والشراء مع الذين يسفكون دماء إخواننا وأمهاتنا وأطفالنا وشيوخنا.. إن الفتور في المقاطعة يعني غياب الفهم.. وانعدام الرؤية..

والمقاطعة للأعداء ليست بدعة في وسائل المقاومة..

إلى الذين فتروا عن المقاطعة أهدي لهم: في عام 2003 بحثت الحكومة الأمريكية مقاطعة الصادرات الألمانية لأمريكا والتي تتجاوز سنوياً 60 بليون دولار.. وبحثت مقاطعة الطيران الفرنسي والجبن الفرنسي.. وذلك لأن ألمانيا وفرنسا تعارضان (مجرد معارضة) السياسة الأمريكية تجاه

العراق..

عضو في الكونجرس طلب تغيير اسم ال FRENCH FRIES (البطاطس الفرنسية) إلى اسم FREE FRIES (البطاطس الحرة) مع أن هذا مجرد اسم, والبطاطس لا تصنع في فرنسا.. ولكن العضو يرفض كل ما يحمل اسم فرنسا حتى ال FRENCH FRIES

فأين المسلمون ؟

3ـــ الإيجابية في الانتخابات لاختيار الأصلح.. مهما خرجت النتائج على غير الرغبة الحقيقية للشعوب.. ولكن هذا واجب.. هذا طريق لابد أن يُسلك مع غيره من الطرق..

4ـــ التربية : تربية الأطفال والشباب على هذه المعاني، وبث روح الجهاد والتضحية والبذل في نفوس الشعب.. وضرب الأمثلة العظيمة.. واستعراض التاريخ المجيد..

هذا دور ملقىً على عاتق كل أبٍ وكل مدرسٍ وكل داعيةٍ وكل صاحب قلمٍ وكل صاحب قلبٍ مسلمٍ غيورٍ على الدين..

5ـــ الإصلاح ومحاربة الفساد والارتفاع بمستوى الأخلاق وإشاعة جو من التعامل النظيف.. النظيف في اليد.. النظيف في اللسان.. النظيف في القلب.. كل في مكانه وكل حسب طاقاته..

6ـــ تحسين الإنتاج وتوجيهه إلى الأصلح والأنفع.. ومراقبة الله عز وجل في كل عمل.. في كل صناعة.. في كل زراعة.. في كل منتج..

7ـــ الدعاء المستمر الملح.. سلاح فعال تماماً.. ولكن لا تنسوا مقولة أنس بن مالك رضي الله عنه: "الدعاء يرفعه العمل"، الله لا يستجيب لدعاء من لا يعمل، من لا يتحرك، من لا يقوم، من فتر وأحبط ويئس ولم يتحرك لنصرة الإسلام والمسلمين، وهذه الأشياء في أيدي أمة المسلمين، وأنا متأكد أن الأمة تملك أشياء كثيرة، ولا يعتقدنّ أحد أن أمة الإسلام أمة عاجزة.

المفهوم التاسع :

"أقاتلهم وحدي حتى تنفرد سالفتي" أقاتلهم وحدي حتى تقطع عنقي!!..

كلمة قالها الصديق رضي الله عنه عندما حدثت الردة.. يعبر فيها عن القيام بدوره حتى لو قعد الآخرون، إنها المسؤولية الفردية..

نعم نحن أُمرنا أن نعمل مجتمعين، ولكننا سنحاسب فرادى.. "كل نفس بما كسبت رهينة"..

"ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة"..

لو قعد كل المسلمين ما المبرر أن تقعد أنت؟.. لو تكاسل كل الخلق.. ما الداعي لأن تتكاسل أنت؟..

لو دخل كل أهل الأرض النار.. أيكون هذا مبرراً لأن تدخلها معهم؟

إن الله لا يأخذ أحداً بجريرة أحد..

وأنت لا تعمل لفلان أو علان..

لا تعمل لرئيس أو ملك..

لا تعمل لشهرة أو سمعة..

لا تعمل لمال أو سلطان.

إنما تعمل لله رب العالمين..

والله عز وجل حي لا يموت، أول ليس قبله أحد، وآخر ليس بعده أحد..

مطّلع عليك.. محاسبٌ لك.. مجازيك عن الحسنة بعشر أمثالها..

ومعاقبك على السيئة بمثلها...

والله عز وجل لا يظلم مثقال ذرة..

فلماذا الركون.. ولماذا الفتور.. ولماذا الكسل؟

اعمل بكل طاقتك, وتذكر: أقاتلهم وحدي حتى تنفرد سالفتي..

المفهوم العاشر :

إياك والتسويف..

لا أقول لك لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، ولكن أقول لك: لا تؤجل عمل اللحظة الحالية إلى اللحظة القادمة...

لقد عُلم يقيناً أن لكل أمة أجل؛ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون..

فإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح..

إذا أردت دعاءً فمن الآن..

إذا أردت مقاطعة فمن الآن..

إذا أردت صلاة وقياماً وزكاة فمن الآن..

إذا أردت صلحاً مع أخيك.. وصلة لرحمك.. وبراً بوالديك فمن الآن..

إذا أردت دعوة إلى الله, وأمراً بالمعروف, ونهياً عن المنكر فمن الآن..

إذا أردت منعاً للفساد أو للرشوة أو للوساطة فمن الآن..

إياك والتسويف.. فالشيطان لا يأمر المؤمنين بالامتناع عن الأعمال الصالحة، ولكن فقط يأمرهم بتأجيلها. فإذا أُجِّلَتْ أوقِفَت في أغلب الأحوال..

فلا تسلمنّ نفسك للشيطان.. ولا تكونن متَّبعاً لهواك..

كان هذا المفهوم العاشر..

فتلك عشرة كاملة.....

لو فهمناها وفهّمناها وتحركنا بها قامت لنا أمة.. ورُفعت لنا راية.. وكُتب لنا نصر وسيادة وتمكين..

وختاماً..

أخي وحبيبي.. ورفيقي في طريق الله..

ليست هذه أولى الأزمات التي مرت بأمتنا الإسلامية..

ليس هذا أول الجراح أو أول الآلام..

ليست هذه أولى السقطات..

فبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت جزيرة العرب بكاملها إلا ثلاث مدن وقرية..

وظهر من يدعي أنه يوحى إليه.. وأنه رسول بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم..

"ومن اظلم ممن افترى على الله كذباً.. أو قال: أوحى إلي ولم يوح إليه شيء، ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله.."

ظهر مسيلمة الكذاب وارتد معه عشرات الألوف.. ومع ذلك لم تنزل الطير الأبابيل.. ولم تُرم حجارة من سجيل.. وظل الوضع كما هو عليه إلى أن بعث الله عز وجل رجالاً يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم..

جاء خالد بن الوليد وأصحابه ليطهِّروا الأرض من مسيلمة وأصحابه..

أما قبل قدوم المجاهدين .. فلا طير أبابيل..

ـــ ذبح الصليبيون في بيت المقدس سبعين ألفاً من المسلمين في يوم واحد سنة 492 هـــ ولم تنزل الطير الأبابيل ولم ترمَ حجارة من سجيل..

وظل الوضع على ما هو عليه إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي ومن معه من المجاهدين ليطهروا الأرض من الصليبين..

ـــ استباح التتار بغداد وقتلوا من أهلها ألف ألفٍ في أربعين يوماً سنة 656 هجرية.. لم تنزل طير أبابيل على التتار المشركين الظالمين الكافرين..

وظل الوضع على ما هو عليه إلى أن بعث الله قطز ومن معه من أبطال المسلمين..

فكانت عين جالوت.. وكان النصر والتمكين..

ـــ بل أشد من ذلك..

جهز القرامطة (وهم طائفة من أخبث طوائف الشيعة، حتى إن بعض العلماء أخرجهم من دائرة الإسلام) جهزوا جيشاً لغزو مكة المكرمة.. وبالفعل دخلوا الحرم المكي والبيت الحرام في اليوم الثامن من ذي الحجة يوم التروية في سنة 317 واستباحوا مكة وأهلها.. سفكوا دماء كل من كان بالحرم من الحجيج.. حتى من تعلق بأستار الكعبة.. وتناثرت الأشلاء في الكعبة المشرفة.. وسالت الدماء على أطهر بقعة في الأرض..

وكان زعيمهم عليه لعنه الله (أبو طاهر سليمان الجنابي) يقف على باب الحرم يقول:

أنا لله وبالله أنا   يخلق الخلق وأفنيهم أنا!!

بل أرسل رجلاً من أتباعه ليتزع الحجر الأسود من مكانه.. وذهب إليه, ونزعه بالفعل!! ثم وقف يرفعه إلى السماء ويقول في كفر صريح:

أين الطير الأبابيل؟ أين الحجارة من سجيل؟!!

ولم تنزل الطير الأبابيل.. ولم ترمَ حجارة من سجيل..

وانتُزِع الحجر الأسود من مكانه لمدة اثنتين وعشرين سنة كاملة!!!.. ولم يعد إلا في سنة 339 هجرية..

ظل المسلمون يحجُّون إلى بيت الله الحرام اثنتين وعشرين سنة بدون حجر أسود!!!..

إنها السنة الإلهية المستقرة لهذه الأمة.. "إن تنصروا الله ينصركم, ويثبت أقدامكم"..

نحن لسنا في زمان أبرهة.. نحن في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم..

وبغير شرعه صلى الله عليه وسلم فلا نصر ولا فوز ولا نجاة.

دين الله واضح لا غموض فيه.. قواعد شرعية معلومة.. وسنن إلهية ثابتة.. إن سار عليها المسلمون فازوا في دنياهم وأخراهم.. وإن أبوا.. فلا يلومُنَّ إلا أنفسهم..

وصدق الله إذ يقول:

"من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً".

فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد..

وجزاكم الله خيراً كثيراً..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.